

البلاغة الجديدة بين رواسب التخيل ومتطلبات الإقناع دراسة في أطاريح البلاغيين الجدد

بن زحاف يوسف
أستاذ اللسانيات وتحليل الخطاب
المركز الجامعي بغيليزان

يهدف هذا المقال إلى مدارس مجموعة من الأطاريح التي نصبت موضوع البلاغة هدفاً للفحص والتقويم، سواء في تراثها اليوناني أو العربي.

وعلى تعدد هذه الأطاريح وتنوعها، سمحنا لأنفسنا أن نستخلص منها بعض النماذج التي نراها تؤسس لمفهوم البلاغة الجديدة، متخذة من التراث البلاغي العربي منطلقاً لها، وفي الوقت نفسه تنظر إليه بعين الفحص والنقد والتقويم، وهي لا تتفك تجهر بضرورة مدارس هذا التراث الضخم بآليات جديدة، لا تغفل ما أنتجه الفكر اليوناني القديم، ولا ما زال ينتجه الفكر اللساني الغربي المعاصر. ويمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر أعمال فريق البحث في البلاغة والحجاج بجامعة منوبة بتونس تحت عنوان: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية منذ أرسطو إلى اليوم، وهي مجموعة كبيرة من الدراسات التقييمية لدرس البلاغة الجديدة والحجاج، وأهمها دراسة عبد الله صولة عن مشروع حاييم بيرلمان مع أولبرايت تيتيكا حول مقتضيات البلاغة الجديدة في كتابهما - traité de l'argumentation - la nouvelle rhétorique، وكذلك دراسة حمادي صمود عن مفهوم الخطابة وآلياتها الإقناعية عند أرسطو. ومن جهة أخرى نلتقي بمشاريع نقدية أخرى لا تقل عن سابقتها جرأة، منها مشروع محمد العمري عن مقومات الخطاب الإقناعي في التراث العربي.

إن كل هذه الأعمال تنتهي إلى حقيقة واحدة، وهي إنتهاء درس البلاغة العربية القديمة إلى أزمة في منهجية التناول، وقصور عن تلبية متطلبات الإقناع المعاصرة، وإذا كان القدما قد بذلوا الجهد وأفرغوا الوسع في مدارس الجوانب التخيلية في الخطاب التواصل، فإن الجوانب الإقناعية تحتاج اليوم إلى الكثير من الدرس والمراجعة والفحص، وهذا ما يتجلى بوضوح في أعمال البلاغيين الجدد.

في البداية يمكن أن نشير إلى النقد الدقيق الذي تقدم به حمادي صمود لتطور مسار الدرس البلاغي العربي، مفرقا بينه وبين مسار تطور الدرس البلاغي عند اليونان، فالظروف التاريخية والثقافية التي نشأت في أحضانها البلاغة العربية تختلف عن الظروف التاريخية والثقافية التي نشأت في أحضانها الخطابة اليونانية. «لقد كانت الدواعي إلى نشأة البلاغة مختلفة تماما عن دواعي نشأة الخطابة. ولقد كانت جميعا تدفع الدارس إلى الاهتمام بالخطاب، لا فيما يمكن أن يعرضه من الأقضية وبينيه من الحجج ويعبر عنه من الحقائق، وإنما إلى صورته وشكله وما يتوفر فيه من طرق القول وأساليب التعبير. .. فالبلاغة ظهرت تباشيرها في أحضان الشعر، والشعر وقعه من إيقاعه، وفضله من هيئة القول فيه. .. ولم يغير ظهور القرآن من الأمر شيئا، بل قواه وثبته حتى غدا التفوق وبلوغ النهايات مرتبطا في أذهان الناس بالشكل والمظهر»¹. ومع تحقظنا على الحكم الأخير المتعلق بكون القرآن الكريم امتدادا طبيعيا للشعر العربي القديم في كل جوانبه، إلا أن ما يثير الاهتمام هو كون الدرس البلاغي العربي كان يركز على تحليل البنى الفنية، التي يعتبر التوفيق في تحليلها وفهمها، والوصول بها إلى تأويل مقبول ومناسب، الأساس المتين لإثبات قضية «الإعجاز»، ومفارقة الكلام الإلهي للكلام البشري. فحتى نهاية القرن الخامس الهجري كانت قضية «النظم» التي انتهت بها عبد القاهر وابن سنان الخفاجي إلى ما انتهى إليه، هي الشغل الشاغل للبلاغيين على اختلاف منازلهم.

هل نستطيع أن نقول أن البلاغة العربية كانت تركز على دراسة البنى التخيلية على حساب البنى الإقناعية؟ هذا ما هو مقتنع به جل البلاغيين الجدد. فمحمد العمري يرى ذلك، ومنذ وقت مبكر في تاريخ الدرس اللساني العربي الحديث ألف كتابه «في بلاغة الخطاب الإقناعي»²، وكانت تحدوه رغبة ملحة في إعادة درس الجانب الإقناعي من البلاغة العربية، وإحياء أصولها القائمة على التواصل الحي بين المتخاطبين. وهويشير أيضا إلى أن من البلاغيين القدامى من «تنبه للخصوصيات [القائمة بين التخيل والإقناع] واعتبرها في تأليفه، مثل قدامة وابن رشيق وحازم وإسحاق بن وهب. . ومنهم من

1 فريق البحث في البلاغة والحجاج: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، طبع كلية الآداب بمنوبة، تونس. مقال حمادي صمود: في الخلفية النظرية للمصطلح: مصطلح الحجاج، ص 19. وانظر كذلك ص 31.
2 صدرت الطبعة الأولى منتصف الثمانينات من القرن الماضي.

لم يهتم بالتمييز إلا بشكل ثانوي خارج عن بناء مفاهيمه البلاغية، مثل ابن سنان الخفاجي وأكثر المشتغلين بالإعجاز. ولقد كانت لذلك انعكاسات سلبية وإيجابية¹. وعليه فإن هذا التركيز على جانب دون جانب، وإن كانت له أسبابه ودواعيه الموضوعية في القديم، فهذا لا يسوِّغ إهماله والتجافي عنه في الوقت المعاصر. ومع ذلك فـ «إن دراسة الخطاب الإقناعي دراسة شعرية لا تعدم الشرعية بصفة مطلقة، ولكنها تقف عند عنصر واحد من عناصر الإقناع التي يلجأ إليها الخطيب»².

مهما يكن من أمر، فإن درس البلاغة الجديدة القائم على درس أساليب الحجاج، وطرائق الإقناع غدا مطلباً ملحاً من مطالب البلاغيين الجدد. وفي الدرس الافتتاحي لجامعة ابن زهر من العام الدراسي 1993-1994 تطرق الأستاذ طه عبد الرحمان إلى المسألة من مختلف جوانبها، وانتهى إلى نتائج جيدة، لم نكن نتوقعها. ورغم أنه هجم على الموضوع مباشرة، واعتمد في مصادره على التراث الغربي جملة، المنطقية منها واللغوية والفلسفية، إلا أن الخلاصة التي يخرج به القارئ لدرسه أنه أمام عقل عربي محض، وأن هذا الكلام هو الكلام الذي كان ينبغي أن يقال منذ زمن بعيد، أوبالأحرى هو الجانب المهمل من الدرس البلاغي القديم، والذي يمتد إهماله في الدرس البلاغي الحديث³.

ومن هذا المنطلق بدأ الاهتمام بالجانب الإقناعي من البلاغة العربية، سواء كان ذلك ببعث وإحياء تلك الأفكار المتفرقة هنا وهناك من أفكار البلاغيين القدامى أوبمدرسة المنتوج الغربي الحديث، وإيجاد الروابط التي تربط بين التراثين وتجعل من الهموم التي تشغلها هموماً مشتركة.

في هذا الصدد نلتقي بتفتيش محمد العمري في تراث ابن رشد. وفي المقال الذي نشره في سنة 1999 عن البلاغة العامة والبلاغة المعممة⁴، نجده يقف على ما يسميه ابن رشد بـ «عمود البلاغة». وهو يعرفه كما يلي: «عمود البلاغة بعبارة عامة سهلة هو الحجج القائمة في الأقيسة الخطابية التي هي عنده أقيسة بلاغية أوضمائر. والأقيسة

1 محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2002، ص8.

2 المرجع نفسه، ص8.

3 راجع: طه عبد الرحمان: التواصل والحجاج، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

4 محمد العمري: البلاغة العامة والبلاغة المعممة، مقال نشر في مجلة فكر ونقد المغربية، العدد 25، الرباط، 1999.

البلاغية احتمالية أي أنها غير قطعية. وهي بذلك غير مؤهلة لتمييز الحق من الباطل ولكنها من وجهة النفع الجمهوري شبيهة بالحق"، ويستشهد لذلك بقول ابن رشد:

«والتصديقات الخطبية، وإن لم تكن حقا، فهي شبيهة بالحق. وأيضا فإن الناس متهينون بطبيعتهم كل التهيئة نحو الوقوف على الحق نفسه، وهم، أكثر من ذلك، يؤمّونه ويفعلون عنه. والمحمودات، وهي التي تكون منها الضمائر، شبيهة بالحق من قبل أنها نائبة عند الجمهور مناب الحق. والشبيه بالحق قد يدخل في علم الحق الذي هو علم المنطق»¹.

وأنت ترى أن هذا الاصطلاح يغمز من طريق خفي عمود الشعر، على أساس أنه كان يلاحظ ذلك الميل إلى الاهتمام بالتزويق والتميق الذي كان من مقتضيات التخيل الشعري، على حساب مقتضيات الإقناع المنطقي الذي هولب الخطابة. ومن هنا فإن الحياد عن عمود البلاغة القائم على المنطق هوفي الحقيقة حياد إلى الجوانب الأسلوبية. يقول ابن رشد: وإذا كان الأمر هكذا، فقد استبان أن قصور هؤلاء فيما تكلموا فيه من أمر الخطابة إنما كان من أجل أنه لم يكن عندهم علم بالمنطق، وأن سائر من تكلم في الخطابة ومن يستعمل الأقاويل الخطبية فقط، من غير أن يتقدموا فيعرفوا هذه الأشياء التي هي عمود البلاغة، أنه إنما تكلموا في أشياء تجري من البلاغة مجرى التزيين والتميق الذي يكون في ظاهر الشيء وصفحته، لا في الأشياء التي تنزل منها منزلة ما به قوام الشيء ووجوده. وإن كان قد يظن بما فعلوا من ذلك أنهم قد بلغوا الغاية من الأقاويل الإقناعية، وجروا في ذلك على طريق الصواب والعدل². ويعلق العمري على كلام ابن رشد أنه حينما نص على «التزيين والتميق، وهويتحدث عن العناصر غير الجوهرية في الخطابة، كان نظره مركزاً على حال البلاغة العربية، حيث عوملت الخطابة، في أكثر الأحوال بعد الجاحظ، معاملة الشعر، أي نُظر إلى الجانب التزييني الخارجي وأهمل الجانب الداخلي الحجي».

إن التركيز على الجوانب الأسلوبية في نظر ابن رشد يعني التركيز على الجوانب السيكلوجية التي تعمل على إعداد المتلقي وتهيئته لقبول الحقائق، وبالتالي فهذا الجانب هوفي الحقيقة جانب

1 ابن رشد: تلخيص الخطابة، ص 4.

2 المرجع نفسه، ص 4.

مستقل عن البناء المنطقي، ولكنه سابق عليه ومهيء له، وهو الذي يسميه: الضمائر. يقول ابن رشد: كل من تكلم في هذه الصناعة ممن تقدمنا فلم يتكلم في شيء يجري من هذه الصناعة مجرى الجزء الضروري والأمر الذي هو أحرى أن يكون صناعيا، وتلك هي الأمور التي توقع التصديق الخطبي، وبخاصة المقاييس التي تسمى في هذه الصناعة الضمائر، وهي عمود التصديق الكائن في هذه الصناعة، أعني الذي يكون عنها أولا وبالذات.

وهؤلاء فلم يتكلموا في الأشياء التي توقع التصديق الخطبي بالجملة ولا في الضمائر التي هي أحرى بذلك. وإنما تكلموا، فأكثروا، في أشياء خارجة عن التصديق وإنما تجري مجرى الأشياء المعينة في وقوع التصديق مثل التكلم في الخوف والرحمة والغضب وما أشبه ذلك من الانفعالات النفسانية التي ليست معدة نحو الأمر المقصود تبينه أولا وبالذات، وإنما هي معدة نحو استمالة الحكام والمنظرين، ولذلك كانت وكأنها موطئة للتصديق لا فاعلة له¹.

وعلى كل حال فهذا الجانب تكلم فيه أرسطو من قبل وهو الذي سماه Pathos، ويعني به الإلحاح على ذلك الجانب القابل للتحرير والإثارة والانفعال «فتدعن له النفس فتنبسط عن أمر وتقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تتفعل له انفعالا نفسانيا غير فكري سواء كان المقول مصدقا به أو غير مصدق²، كما يقول الشيخ الرئيس ابن سينا.

وبالمثل فعل محمد العمري مع تراث حازم القرطاجني، فاستخلص منه ما يمكن أن نسميه بالمنطقة المشتركة بين ما هو شعري وما هو إقناعي، فيكون التخييل عمدة في الشعر تابعا في الخطابة، كما يكون الإقناع عمدة في الخطابة، تابعا في الشعر. يقول حازم: «وينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة، الواقعة في الشعر، تابعة لأقاويل مخيلة، مؤكدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلة هي العمدة. وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها. وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة³».

1 نفسه، ص 1.

2 ابن سينا: كتاب الشفاء، الفن التاسع، الجملة الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص 161.

3 حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1981/1986. تونس 1966، ص 362.

هل يمكن أن نقول أن أرسطو لاحظ هذا الملحظ، فألف في فن الشعر على حدة، وألف في فن الخطابة على حدة؟ ربما، ولكن المؤكد أن البلاغة العربية القديمة أهملت دراسة الجوانب الإقناعية وصبت اهتمامها الكامل على الجوانب التخيلية، وهذا من فرط اهتمامها بفن الشعر، وأنه يصور نفس العربي تصويراً دقيقاً، أو ربما انسياقاً وراء الاعتقاد السائد من أن الرجل العربي شاعر بطبعه، مندفع ولا عقلاني. ومع هذا فإن نجد في الخطاب القرآني غير ذلك، نجد بأن العربي شديد المراس، لدود في الخصومة: «فَإِنَّمَا يَسِرَّتْهُ يَلِسَانُكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا» [مريم/97]، وهو واسع العارضة البيانية، يمتن من كان من الناس مجرداً عنها، فيسلكه في عداد الذين لا قيمة لهم: «أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟» [الزخرف/18].

من جهة أخرى نلتقي مع نوع آخر من أنواع البحث في ميدان البلاغة الجديدة، وهو البحث المتمسم بالإنشاء الخالص، القائم على حق الاجتهاد والإبداع. وفي هذا المضممار نلتقي مع طه عبد الرحمان في كتابه: اللسان والميزان. ومنذ البداية يحدّد منهجه بوضوح قائلاً: «جمعنا في هذا الكتاب أبحاثاً منطقية لسانية تدخل في باب التأليف الاجتهادي، إذ سعينا إلى أن نجى فيها بشكل أوبآخر بما لا نكون معه مقلدين ولا ناقلين ولا شارحين، بين اختراع لمفاهيم وتوليد لمصطلحات وبيان لفروق وإنشاء لدعاوى وصوغ لمبادئ ووضع لقواعد وترتيب لقوانين وتدلّيل على مسائل واستخلاص لنتائج وتصحيح لآراء وإيراد لشبه، وقس على ذلك "1. وإذا كنا قد أشرنا منذ قليل إلى دراسة الافتتاحي سنة 1993 حول الاتواصل والاحتجاج، فإن هذا الكتاب هو شرح موسع لما أجمله هناك وتفصيل دقيق له.

وما يهمنا في هذا الكتاب هو الباث الثاني الذي خصصه للخطاب والحجاج، وفيه يقيم دعاوى ثلاث يقدمها كما يلي:2:
الأولى: الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابية، بناء على أنه لا كلام بغير خطاب.
الثانية: الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج.

1 طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، ص18.
2 المرجع نفسه، ص213.

الثالثة: الأصل في تكوثر الحجاج هو صفته المجازية، بناء على أنه لا حجاج بغير مجاز.

[اصطلاح التكوثر هنا مشتق من الكثرة وهو بمعنى التراكم، ولكنه يضم إلى هذا المعنى الأصلي، حسب صاحبه، خصائص ثلاث: أولها أنه فعل عقلي، فالعقل عنده فاعلية وحق الفاعلية أن تتغير على الدوام. وثانيها أنه فعل قصدي والقصد يفيد التوجه وكل توجه يتأسس على علاقة وكل علاقة تدعو إلى مقابلها إن مثلاً أوضداً. وثالثها أنه فعل نفعي ومعنى ذلك أن المجلى الأول للفاعلية القصدية هو طلب المنفعة - انظر مدخل الكتاب]

فيما يخص الدعوى الأولى يعبر فقواها أن حقيقة الكلام لا تقوم بمجرد النطق بالفاظ مرتبة على مقتضى مدلولات محددة، لأن هذا النطق قد يكون عرضاً كما في حال النوم، والترتيب قد يكون مصادفةً كما في حال اللعب، وقد تنتزع الدلالة عنوةً كما في حال فلتات اللسان، ولكن الكلام لا يكون كلاماً حقاً، أي خطاباً ما لم يركز على شرطين مقامين، الشرط الأول هو شرط: إرادة التوجه إلى الغير، والشرط الثاني هو شرط: إرادة الإفهام.

أما القصد الأول، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون كلاماً حقاً [أي خطاباً] حتى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره، وما لم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يعد متكلماً حقاً، حتى ولو صادف ما نطق به حضور من يتلقفه، لأن المتلقف لا يكون مستمعاً حقاً حتى يكون قد ألقى إليه بما تلقف، مقصوداً بمضمونه هو أو مقصوداً به غيره بوصفه واسطة فيه، أو قل حتى يدرك رتبة: المتلقي. فالمتلقي هو عبارة عن المتلقف الذي قصده المتلقي بفعل إلقائه.

وأما القصد الثاني، فلا يكون المنطوق به كلاماً حقاً حتى تحصل من الناطق إرادة إفهام الغير، وما لم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يمكن أن يعد متكلماً حقاً حتى لو صادف ما لفظ به فهما ممن التقطه، لأن المتلقف لا يكون مستمعاً حقاً حتى يكون قد أفهم ما فهم، سواء أوافق الإفهام الفهم أم خالفه، أو قل حتى يدرك رتبة: الفاهم، فالفاهم عبارة عن المتلقف الذي قصده المفهم بفعل إفهامه¹.

وفيما يخص الدعوى الثانية، فقواها أن ماهية الخطاب ليست في مجرد إقامة علاقة تخاطبية بين جانبيين فأكثر، لأن هذه العلاقة، على قدرها وفائدتها، قد توجد حيث لا يوجد طلب إقناع الغير بما دار

1 نفسه، ص 214.

عليه الخطاب، فقد يحصل أحد الجانبين القصدتين المطلوبين في قيام هذه العلاقة وهما: قصد التوجه إلى الآخر وقصد إفهامه مراداً مخصوصاً، من غير أن يسعى إلى جلب اعتقاد أو دفع انتقاد، ولا أن يزيد في يقين أو ينقص من شك. إنما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدتين التخابطيتين المذكورين قصدتين معرفيتين هما: قصد الادعاء وقصد الاعتراض. ..

أما قصد الادعاء، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطاباً حقاً، حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد لما يقول من نفسه وتتم الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة. ..

وأما قصد الاعتراض، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطاباً حقاً، حتى يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدعيه، ذلك لأن فقد المنطوق له لهذا الحق يجعله، إما دائم التسليم بما يدعيه الناطق، فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه، وإما عديم المشاركة في مدار الكلام 1.

وإذا ثبت هذا فإن العملية التخابطية هي عملية استدلالية بامتياز. وبعبارة أخرى هي نوع من النضال الحجاجي الذي تتوخى أطرافه توجيه بعضهما البعض إلى أغراض وأهداف مقاصدية. ومن هنا تبرز الحاجة إلى التأويل لأنه يعتبر الوسيلة المثلى للوصول إلى هذه الأغراض والمقاصد.

أما الدعوى الأخيرة فهي أن ماهية الحجاج تقوم في كونه ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة، هذا الالتباس الذي لا نجد له نظيراً في غيره من طرق الاستدلال، ولولا تضمن الحجاج لهذا الالتباس، لما تميزت طريقه عن طريق البرهان، فهذا الالتباس هو إذن الفاصل بين الحجاج والبرهان 2.

وليس هذا الالتباس الذي يتحدث عنه طه عبد الرحمان إلا المجاز، الذي هو «كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها بحسب القيمة التي تحملها. ولا يخفى أن هذا التعريف للمجاز يأخذ بالازدواج الذي ينبني عليه الالتباس المطلوب في الحجاج، وهو الازدواج بين واقع الدعوى وقيمتها، وما واقع الدعوى إلا ظاهرها أو قل عبارتها، وما قيمتها إلا باطنها أو إشارتها، وبذلك يكون جامعاً بين معنيين متقابلين هما

1 نفسه، ص 225.

2 نفسه، ص 230.

العبارة والإشارة، وهذا الجمع هو عين الالتباس المطلوب في الحجاج¹.

وإذن فقد آلى البلاغيون الجدد على أنفسهم إلا أن يخطوا لأنفسهم منهاجاً جديداً كما قلنا، سواء ببعث وإحياء ما تناثر في كتب التراث من أفكار قيمة، أو بمدارسة المنتوج الغربي القديم منه والمعاصر.

في هذا الصدد نلتقي بمشروع فريق البحث في البلاغة والحجاج بجامعة منوبة بتونس في الكتاب المشترك تحت عنوان: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم. وهو يضم مجموعة قيمة من المقالات، يتقدمها مقال حمادي صمود عن الخلفية النظرية لمصطلح الحجاج، ثم مقال هشام الريفي عن الحجاج عند أرسطو، ثم مقال عبد الله صولة عن أطر الحجاج ومنطلقاته من خلال مشروع الثنائي حاييم بيرلمان وأولبرايت تتيكا في كتابهما المشترك: *Traité de l'argumentation – La nouvelle rhétorique*، أما مقال محمد علي الفارضي فكان عن البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسائلة لميشال ميار، ويبقى في الأخير مقالان لكل من شكري المبخوت عن نظرية الحجاج في اللغة، ومحمد النويري عن الأساليب المغالطية.

ولأهمية هذه الأبحاث جميعاً، نقف وقفة قصيرة مع مدارسة عبد الله صولة لمشروع الثنائي حاييم بيرلمان وأولبرايت تتيكا. ولا بأس أن نبدأ بالخلاصة التي خرج بها من هذه المدارسة، والتي مفادها أن الباحثين عملاً على «تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة واستلاب. فالحجاج عندهما معقولة وحرية، وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، ومن أجل حصول التسليم برأي الآخر بعيداً عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادة وبعيداً عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل. ومعنى ذلك أن الحجاج عكس العنف بكل مظاهره². وبعبارة أخرى فإن عملهما هو رسم شامل لما يكون به الحجاج حواراً من أجل الوصول إلى الاقتناع *La conviction* وليس حملاً على الإقناع *La persuasion*. وبالتالي فهو يقع في منطقة وسط بين الاستدلال *La démonstration* والإقناع

1 نفسه، ص 231.

2 فريق البحث في البلاغة والحجاج: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية. مقال عبد الله صولة: الحجاج، أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال 'مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة' لبريلمان وتتيكا، ص 298.

La persuasion. ذلك أن «الاستدلال يقتضي أن تكون كافة عناصره المكونة له غير قائمة على التعدد والاشتراك، فهي أحادية المعنى Univoque، بحيث تكون هذه العناصر مما يفهمه الناس جميعا بدون اختلاف بينهم ولا يثير تأويلها أي مشاكل أو مسائل خلافية بينهم. والاستدلال غير مرتبط كذلك بمقام مخصوص وهوفي خصائصه هذه كلها على عكس الحجاج تماما، حيث يكون التعدد والاختلاف والخصوصية والارتباط بالمقام»¹.

ولما كان المقام يحتل كل هذه المكانة في البنية الحجاجية عند بيريلمان وتتيكا، وكانت نوعية الجمهور المتلقي هي العنصر الأساسي في هذا المقام، فإن المؤلفين يقسمان الحجاج إلى قسمين بحسب نوع الجمهور: حجاج إقناعي Argumentation persuasive، وهو يرمي إلى إقناع الجمهور الخاص، وحجاج اقتناعي Argumentation convaincante، وهو يرمي إلى أن يسلم به كل ذي عقل، وبالتالي فهو موجهة إلى عموم الناس. ولكن المهم في كليهما أن «الحجاج غير الملزم Non contraignant وغير الاعتباري، هو وحده القمين بأن يحقق الحرية الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل. فأن تكون الحرية تسليما اضطرابيا [إلزاميا] بنظام طبيعي معطى سلفا معناه انعدام كل إمكان للاختيار. فإذا لم تكن ممارسة الحرية منبئية على العقل فإن كل اختيار يكون ضربا من الخور ويستحيل إلى حكم اعتباري يسبح في فراغ فكري»².

وعلى أية حال، يجدر الإشارة في الأخير أن نشير إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي تحتاج إلى دراسة مستقلة، وهي التي تتعلق برسم الحدود الفاصلة بين حقل البلاغة الجديدة وبين الأسلوبية، فقد شاعت منذ زمن بعيد تلك المقالة التي تحاول أن تجعل منهما حقلا معرفيا واحدا، وترد المصطلحين على معنى سواء، لعدم الوعي بالتطور التاريخي للدرس اللغوي في أوروبا، فمن المعروف أن الدرس الأسلوبي يشتغل من النصوص الأدبية على جانب العبارة، وهو الجانب الذي يحاول الوقوف على وجه الخصوصية فيها، باعتبار هذه الخصوصية هي التي تحدد تلك العلاقة التي تربط البعد الأنطولوجي في الإنسان بما يعبر عنه في هيئة نص. وأنت ترى بأن هذا النوع من الدراسة لا يتناول إلا بعدا واحدا من أبعاد الخطابة، وهو البعد المتعلق

1 المرجع نفسه، ص 300.

2 نفسه، ص 301.

بالعبارة كما يرى ذلك أرسطو¹. وعليه لا يكون الدرس الأسلوبى فى الحقيقة إلا فرعا عن الخطابة فى عمومها الشامل. وكان ذلك كذلك فقد وجب التنبيه إلى ذلك الخلط الساذج، الذى قد ينجر عنه الكثير من اللبس، وهوىحتاج فى الحقيقة على دراسة مستقلة.

1 حمادى صمود: فى الخلفية النظرية للمصطلح، ص 33 وما بعدها.